التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

تكفل الله تعالى لرسوله بحفظ القرآن وبيانه: " إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ " , فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفهم القرآن جملة وتفصيلًا. وكان عليه أن يبيّنه لأصحابه: " وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "

وكان الصحابة -رضي الله عنهم- يفهمون القرآن كذلك؛ لأنه نزل بلغتهم. وإن كانوا لا يفهمون دقائقه، يقول ابن خلدون في مقدمته: "إن القرآن نزل بلغة العرب - وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه" ولكنهم مع هذا كانوا يتفاوتون في الفهم، فقد يغيب عن واحد منهم ما لا يغيب عن الآخر.

أخرج أبو عبيد في الفضائل عن أنس: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: " وَفَاكِهَةً وَأَبّاً " فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر .

وأخرج أبو عبيد من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما: " فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" ، حتى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها

ولذا قال ابن قتيبة: إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل في ذلك عن بعض .

وكان الصحابة يعتمدون في تفسيرهم للقرآن بهذا العصر على:

أولاً : القرآن الكريم: كان القرآن ينزل منجما على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على مدى ثلاثة وعشرين عاما فمنه ما كان ينزل على الحوادث والأسباب، فيكون هذا بيانه وتفسيره، ومنه ما كان ينزل ابتداء، وفيه من بواطن العلم ما لا يعرفه أحد إلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيفسره ويوضحه للناس فكان النبى صلّى الله عليه وسلّم هو المصدر الأول للتفسير، والمرجع الأساسى المبين لمراد الله- تعالى- على وجه الحقيقة.

فما جاء مُجملًا في موضع جاء مبينًا في موضع آخر, تأتي الآية مطلقة أو عامة، ثم ينزل ما يقيدها أو يخصصها، وهذا هو الذي يسمى بتفسير القرآن بالقرآن ولهذا أمثلة كثيرة، فقصص القرآن جاء موجزًا في بعض المواضع ومسهبًا في مواضع أخرى، وقوله تعالى: " أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ " فسره آية: " حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَة " .

ثانياً: النبي, صلى الله عليه وسلم: فهو المبيّن للقرآن, وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات، عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: " الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ " شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: " إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " إنما هو الشرك .

كما كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لهم ما يشاء عند الحاجة، عن عقبة بن عامر قال: "سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول وهو على المنبر: " وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ" ألا وإن القوة الرمي "

ولم يدون شيء من التفسير في هذا العصر؛ لأن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني، وكان التفسير فرعًا من الحديث، ولم يتخذ شكلًا منظمًا بل كانت هذه التفسيرات تُرْوى منثورة لآيات متفرقة. من غير ترتيب وتسلسل لآيات القرآن وسوره كما لا تشمل القرآن كله

ثالثا : الصحابة رضي الله عنهم ، الموقوف على الصحابي من التفسير يوجب العلماء الأخذ به؛ لأنهم أهل اللسان، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختُصوا بها، ولما لهم من الفهم الصحيح.

قال الزركشي في "البرهان": (اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد، والأول: إما أن يرد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو الصحابة، أو التابعين - فالأول يُبحث فيه عن صحة السند، والثاني يُنظر في تفسير الصحابي، فإن فسَّره من حيث اللغة فَهُم أهل اللسان، فلا شك في اعتماده. أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه)

وانتقل علم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى معرفة كتاب الله وبيان معانى آياته إلى فئة معينة من أصحابه- رضى الله عنهم- وكانوا ستة عشر نفرا هم أعلم الأمة بالتفسير وهم:

(أ) من الرجال:

١ - أبو بكر الصديق- رضى الله عنه-

٢ - عمر بن الخطاب- رضى الله عنه-

٣ - عثمان بن عفان- رضى الله عنه-

٤ - على بن أبى طالب- رضى الله عنه-

٥ - عبد الله بن عباس- رضى الله عنه-

٦ - عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه-

٧ - أبىّ بن كعب- رضى الله عنه-

٨ - زيد بن ثابت- رضى الله عنه-

٩ - أبو موسى الأشعرى- رضى الله عنه-

١٠ - عبد الله بن الزبير- رضى الله عنه-

١١ - أنس بن مالك- رضى الله عنه-

١٢ - أبو هريرة- رضى الله عنه-

١٣ - عبد الله بن عمر- رضى الله عنه-

١٤ - عبد الله بن عمرو- رضى الله عنه-

١٥ - جابر بن عبد الله- رضى الله عنه-

(ب) ومن النساء:

١٦ - عائشة- رضى الله عنها.

أما الستة نفر الأخيرة فلم يرو عنهم من التفسير سوى النذر اليسير وبقى علم التفسير منحصرا كله فى العشرة رجال الأول

غير أن المكثرين منهم فى رواية التفسير عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى الترتيب التالى بحيث الأكثر فالأقل وهم:

١ - عبد الله بن عباس- رضى الله عنه-

٢ - عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه-

٣ - عليّ بن أبى طالب- كرم الله وجهه

٤ - أبىّ بن كعب- رضى الله عنه-

وعلى علم هؤلاء الأربعة نما علم التفسير وترعرع.

كما نشأت على أيديهم أهم مدارس التفسير فيما بعد، عند ما تفرق الصحابة فى الأمصار بسبب نقل الخلافة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة فى زمن الخليفة الرابع علىّ بن أبى طالب- كرم الله وجهه، وبسبب الفتوحات الإسلامية.

(١) فنشأت المدرسة المكية فى التفسير على يد ابن عباس- رضى الله عنهما-

(٢) ونشأت المدرسة المدنية على يد أبىّ بن كعب- رضى الله عنه-

(٣) ونشأت مدرسة العراق فى الكوفة على يد عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه-

وبهذا انتقل التفسير من المرحلة الأولى فى عصر الصحابة إلى المرحلة الثانية فى عهد التابعين

رابعا : التفسير في عصر التابعين : كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير ، اشتهر بعض أعلام التابعين الذين أخذوا عنهم من تلاميذهم بالتفسير كذلك معتمدين في مصادره على المصادر التي جاءت في العصر السابق بالإضافة إلى ما كان لهم من اجتهاد ونظر

وفي عصر التابعين لقن الصحابة القرآن الكريم لمن بعدهم كما لقن التابعين لمن دونهم بتفسيره مشافهة وكتابة وبعد القرن الثالث أخد التفسير منحنى آخر حيث فسر كل عالم القرآن حسب تخصصه العلمي فمنهم من انتهج إبراز الاعجاز اللغوي للقرآن أو بيان أحكام القرآن أو إعرابه أو التصور العقدي في القرآن .كان القرآن الكريم موضع الاهتمام الاول من المسلمين، وكان فهم آياته وتدبر معانيها له الأولوية عندهم، وكان اهتمام الصحابة بفهم النصوص كبيراً حتى أن عبد الله بن عمرو بن العاص حفظ سورة البقرة في سبع سنين، أي أنه كان يحفظ ويفهم ويطبق ما حفظه آية آية

خامسا : ثم انتقل من صدور التابعين إلى صدور أتباع التابعين.

وكان التفسير خلال هذه العهود الثلاثة يحتفظ بطابع الرواية والمشافهة من الصدور إلى الصدور، لأنه كان جزءا لا يتجزأ من علم الحديث، حتى ما جرى عليه علم الحديث بعد ذلك من التدوين فى أواخر عهد الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية

لم يدون التفسير في العصر الأول للاسلام لاسباب معروفة وكان ذلك خشية الخلط بينه وبين القرآن الكريم، ويذكر كاتب مقدمة تفسير الطوسي المسمي مجمع البيان في تفسير القرآن أن أول كتاب مدون ظهر في التفسير الاثري كان لسعيد بن جبير المتوفي عام (١٤ هـ)، ولعل

ذلك سهواً إذ إن ابن النديم أشار إلى من هو أقدم منه وهو ابن قدامه المتوفى عام (١٠ هـ) ، ويذهب جرجي زيدان في كتابه (تأريخ أدب العرب) إلى أن مجاهداً كان أول من دون التفسير ثم يعقب على ذلك بأنه كان راوياً عن ابن عباس، فتفسيره رواية لتفسير ابن عباس، والقطع في ذلك أمر غير سهل ولكن ما نخلص إليه أن التفسير قد بدأ في القرن الاول ممزوجاً بالفقه ولذلك قالوا إن واضع التفسير مالك بن انس بمعنى جامعه وليس مدونه.

المصادر :

١. مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن
٢. مباحث في علوم القرآن لمناع القطان
٣. مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن